

عصرنا العجيب

للأستاذ عباس محمود العقاد

—>>><<<—

أعجب العصور في تاريخ الإنسان كله هو عصرنا الذي نحن فيه ، ولا سيما هذا النصف الأول من القرن العشرين .

لك أن تلقى التاريخ كله مكتفياً بهذه السنين الأربعين أو الخمسين ، لأنك واجد على اليقين مائة عبرة في مكان كل عبرة تلعبها من تلك التواريخ الفائرة ، ولأنك على يقين واجدها أضغافاً مضاعفة ، في القوة والكثرة والدلالة والوضوح .

لقد كانت السنين تنقضي في تواريخ الماضين عشراً بعد عشر ، ومائة بعد مائة ، بل ألفاً بعد ألف في بعض الأحيان ، قبل أن يظهر للعالم رجل خطير يضطلع بأعباء حادث خطير ، أو قبل أن تقام دولة وتسقط دولة ، وقبل أن تنجلي للأبصار والبصائر بواعث القيام ودواعي السقوط .

أما اليوم فتقيام الدول وسقوطها من أبناء الصباح والنساء ، واختلاف العبر وتقلبات المقادير من ذكريات العمر الواحد التي لم يتجاوز الثلاثين ، ومسرح القدر كريم بالآسى والمهيبات يعرضها خماً خمساً أو عشراً عشراً في وقت واحد ، فلا يفوتك فصل هنا إلا عوضته بفصول هناك ، ولا تذكر خيال يوربيد وارستفان وسفوكليس واسكيبلاس وشكسبير إلا تلقيت حولك من نسج الواقع روايات مشهودة تفوق كل خيال .

موسوليني من بيت الحداد ، إلى أزقة جنيف ، إلى مظاهرات ميلان ، إلى دست الحكم في روما القيصرية ، إلى الصولة على العالم كله وهو في شرفات قصر البندقية يقمع بالسلاح فيرتجف الأتقياء والضعفاء ، ويحمدون الله على السلامة إذا انقضى ذلك الداء بنير النيران والدناء .

وموسوليني أيضاً من عب للسلام يلقى بنفسه أمام القطار ليموق حركة الجنود التي تنزو طرابلس ، إلى مسمر للحرب لا يفوق ولا يقعد في حكمه إلا بثانية ملايين من الحراب ! وألوف الألوف من صرعى البلاد والخراب !

ثم موسوليني هو هو بعينه هاربا يتسلل على أبواب التخوم

لا يزال يطمع في الحياة بما بقي له من سبائك الذهب وسلوى الفرام ، ثم يفوته هذا الطمع الذليل فإذا هو معلق من قدميه لأنظار السابلة الشامتين ، لا تسلم جثته بعد الموت من رصاصة انتقام وبصقة ازدراء . وحتر سيد الألمان وساحب الأمر الطاع في القارة التي تطلب الطاعة من جميع القارات ...

من طفل مدلل ، إلى جندي مخذول ، إلى شريد على أبواب الصدقة في العاصمة النمسية ، إلى جلس قهوات في ميونخ عاصمة البافاريين ، إلى وارث العرش العريق في برلين ، وسيد الأمة المختارة كما قال بين أمم العالمين . كلمة فإذا العالم يتساءل ماذا يريد ؟ وهمة فإذا هي أجهر في الأذان من البروق والعود ، وحركة فإذا الأكتف على الصدور ، وغضبة فإذا المغرب والشرق يتحدثان بالشرور وعظائم الأمور .

عاش ليفتح الأرض بما رحبت ، ومات لتضن عليه الأرض بقبر من ألوف القبور .

وفي روسيا ، أين دولة القيصرية ومن كان منهم يدعى بالأب الصغير إذا دعى الله بالأب الكبير ؟

وفي القسطنطينية أين دولة الخواص ومن كان منهم يدعى بظل الله وخليفة رسول الله ؟

وفي أمة الفرس أين عرش الأكاسرة ؟ وفي أمم الصين أين عرش أبناء السماء ؟

لا تسئل عن هؤلاء وسل عن لينين وكال ورضا وشيان ، وكلهم بين طالب منى وجندي ناشئ وثائر مغضوب عليه .

ودع السياسة والحرب وانظر إلى النسك والزهادة ترى في الهند ناسكا حاسر الرأس طاف التدم ينازل الدولة التي صمدت للزوال ، في ميادين السياسة وميادين القتال .

ودع النسك والزهادة وانظر إلى عواطف القلوب وخلجات النفوس ترى الساحل العظيم الذي يتخلى عن ملكه ولا يتخلى عن زوجه وشريكه فؤاده وروحه .

ودع كل هذا وانظر إلى الصناعة والاختراع ترى الإبداع الذي ينسبك كل إبداع : هاتف في أقصى المغرب تسمعه في لحظة عين وأنت على عشرات الألوف من الأميال ، وطيارة تسابق الشمس فتدفع الشرق والغرب فيما بين ليلة ونهار .

مامن شيء في مصارع الدول ومقادير الشعوب ، ومامن شيء

اليوم فإنما نظموها لأنهم كانوا يتلقون الحوادث بدشة الخيال ، ولا يستعملونها مع هذا حتى يعنى عليها القدم ثوبا من النعوض والتهويل .

ولا كذلك يصنع المحدثون حين يتلقون الحوادث الكبر في عهدهم الشهود أو فيما غاب عنهم من المهود ، لأن الحادثة الكبيرة تقع بينهم فإذا هي حيز في الصحيفة ، وحديث في المذيع ، وصورة على اللوحة البيضاء ، وموضع للتحليل في كتاب ، وباب للترجمة وسرد السير في سجل من سجلات التاريخ ، ودرس من دروس الصناعة في المعامل أو معاهد التدريب . فقد شبع منها الحس واستنفدها اللسان ، والحس إذا شبع من شيء لم يرجع به إلى دهشة الخيال ؛ واللسان إذا استنفد القول تحليلا وتعليلًا لم يبق منه بقية للنعوض والتهويل .

ترى لو كان « هوميروس » قد شهد حصان طروادة صورة متحركة ، وقرأ أبطال الإغريق كتباً مفصلة ، وسمع الساجلات بينهم حديثاً مذاً أو أسداء على اللوحة البيضاء ، وعلم أنه لا أبواب هناك ولا أنصاف أبواب ، وأنه لا نباتون في البحر ولا زيوس على متن السحاب — أ كان ينظم الإلياذة كما نظمها أو كان الناس يسمونها منه كما سموها ؟

إن الخيال يعمل حين يلجئه الخفاء إلى العمل ، وإن المرء ليفنى حلل الخيال على الغاية في البرج المحجوب ، ولكنه حين يراها إلى جانبه في الترام ، وينظر إليها وهي تأكل الطعام ، ويستمتع إليها وهي تتكلم فتحسن الكلام أو لا تحسن الكلام ، يفكر فيها كل تفكير يحظر على البال إلا أن يلحقها بأجواء الخيال . ولنا نعى بهذا أن الحوادث في عصرنا لم تبق بقية لخيال الشاعر وبديهة الفنان ، ولكننا نعى أن النظرتين مختلفتان وأن التخيل في عصرنا أصعب من التخيل في تلك العصور ، فما كان يسيرا على هوميروس في أيام طروادة لن يتيسر له هذا اليسر في عصر دنكرك وستالنجراد .

نحن نشبع من الحوادث حساً وفهماً فلا نمجب لها كما كانوا بمجبون وهم يتلقونها بالدهشة والخيال ، وعلى هذا قد تمضى السنين الطوال قبل أن محس ما نحن فيه كما ينبغي أن نحسه ، وقبل أن نفهمه كما ينبغي أن نفهمه بمزله عن الأهواء .

عباسي محمود العقاد

في مظاهر القوة بين مظهر خادع ومظهر صحيح ، وما من شيء في أفانين الدعوة التي تقال أو لا تقال ، وما من شيء في أساليب القلب بالسياسة أو بالسلاح ، وما من شيء في موازين التقدير ومقاييس النجاح والإخفاق ، وما من عبرة في حياة الأمم أو الأفراد خلت منها هذه السنين الخمسون ، أو نقص نصيبها منها عن نصيب الدهور متجمعات متلاحقات .

أفنتحن سعداء بهذه الآونة العجيبة أم أشقياء ؟ إن كانت السعادة وفرة الحياة وثروة التجربة فنحن سعداء ، وإن كانت السعادة خلو اليال من العبر والأحداث فنحن لا نغبط السعيد الخالي ، لأن الخلو لم يكن قط بالنعيم الذي يمر النفس ويحمده الأحياء .

فالمر في هذا العصر الحافل لا شك أعمار ، والحياة بين هذه العوالم لا شك حيوات ، وما نحال أحداً يستبدل بأيامه في هذا العصر أياماً في العصور الأخريات ولديه سبب مفهوم .

قال قائل وقد كنت أذكر عجائب عصرنا : نعم ويحيل إلى أناس مع هذا أن العصر عصر باهت لا عجب فيه ، وأن العجائب حق العجائب قد ذهبت مع ذاهب العصور ، لأنهم يعجبون على البمد ولا يعجبون على القرب ، ولا يعلمون أنهم متعجبون إلا إذا قرأوا أنهم متعجبون !

وسأل سائل : لكن أليس بعجيب من هذا العصر أنه لم يبدع ملحمة من الشعر كلاحم الأقدمين ، وما كانت طروادة وميادينها وأبطالها إلا حادثة من حوادث الأقسام في جوانب الحوادث التي مرت بأهل هذا الزمان ؟

قلت حذار يا أخانا أن تخطئ هذه الخطوة التي يترلق إليها شقاد الطواهر مغمضين ! . لو أن أدباء الملاحم النابرة عاشوا في عصرنا هذا لما كان شأنهم غير شأن الأدباء الذين يعيشون فيه . لأن الاختلاف إنما يكون في النظر إلى الوقائع لا في ضخامة الوقائع . ونصيبها من السعة والضجيج . وحذار يا صاح من كل رأى يسول لك أن تجرد الخلائق الآدمية في بعض الأجيال من سليقتهم التي طبعوا عليها في غير ذلك الجيل ؛ فإن السليقة لا تتبدل إلا كما يتبدل الناس بين عصر اليقظة وعصر النفلة والجمود ، فإذا لم يكن العصر عصر عقل أو جود فسليقة النفس الآدمية واحدة من أقدم العصور إلى أحدث العصور ، ولا سيما في مسائل الحس والتعبير . أما أن الأقدمين نظموا الملاحم فيها هو أهون من أعاجيب